

الشيخ أحمد بن قدامة رحمه الله

مؤسس حي الصالحية بدمشق

"هذه قصة لاجئين من فلسطين، ملؤوا الشام علماً، نشأ منهم أفذاذ، ما أظن أن أسرة في الشرق والغرب أخرجت أكثر منهم: ابن قدامة الكبير، أبو عمر، والموفق، والضياء، والحافظ عبد الغني، وهم في الفقه والحديث كأسرة قتيبة والمهلب في القيادة، وجرير في الشعر، وقد دخل عبد الغني صاحب العمدة مصر، ونشر المذهب الحنبلي فيها .. والمختارة للضياء التي تعد من أصح الكتب المؤلفة في زوائد الصحيحين، وكتاب المغني للموفق أعظم كتاب في فقه الحنابلة، وكان من نسائهم نابغات لا يدركهن العد، مضوا ولكنهم خلفوا آثاراً لا تفنى، ومن آثارهم حي الصالحية. وبعد، فهل يليق بأهل دمشق وهي دار الوفاء، وبأهل الصالحية خاصة، أن ينسوا هؤلاء العباقرة الأعلام، فلا يذكرهم ذاكراً، ولا يعرف سيرتهم أحد، ولم يسم بأسمائهم مدرسة في الصالحية ولا شارع".

توقيع الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله

في كتابه / دمشق - ١٩٨٧

وبعد أيها الأخوة الكرام

إذا تساءلنا من هؤلاء العباقرة الأعلام؟ والذين سُمي حي الصالحية في دمشق نسبة لصلاحهم ؟...

تروي المصادر أن من هؤلاء الصالحين من قد اشتهروا أحياناً باسم "المقادسة"، ونحن هنا نبدأ بترجمة رأس مقدمهم الشيخ الكبير أحمد بن قدامة، فهو أول من قام بوضع حجر الأساس في بناء حي الصالحية، فمن هو هذا الشيخ الكبير أحمد بن قدامة؟

عصره وأسباب هجرته:

في أواخر القرن الخامس الهجري وبداية السادس، كان العالم الإسلامي يعاني من هجمات الفرنج المستمرة عليه، مستغلة ضعف الخلافة العباسية في أواخر مراحلها، والمستغلة انقسامهم إلى

دويلات وإمارات عديدة، وفي دمشق كان نور الدين زنكي ٥٤٩ هـ، يحاول توحيد المدن لمجاهمة الفرنج على الحدود، وانتهت تلك الفترة بسقوط بيت المقدس بيد الصليبيين واحتلال مدن فلسطين الداخلية، طبرية - بيسان - نابلس - جماعيل وغيرها.

حكم الصليبيون المدن وفق النظام الإقطاعي، الذي اعتادوا عليه في أوروبا، فرضوا سيطرتهم على الأراضي الزراعية وجعلوا تحت إمرتهم نواب عنهم يقومون على سرقة خيرات البلاد بالظلم، وفرض الضرائب المتنوعة، حتى أصبح الفلاح يعمل أجيراً في أرضه.

هذه الأوضاع السيئة دفعت الكثير من الفلاحين إلى ترك أراضيهم وممتلكاتهم والقيام بهجرة إلى دمشق.

وقد شهدت دمشق وغوطتها هجرات فردية وجماعية، هذه الهجرات انضوت في بوتقة المجتمع الدمشقي والمناطق المحيطة، فمثلت مدينة دمشق ظاهرة هذا التجانس والتلاحم بين أفرادها.

ومدينة دمشق ونابلس كانتا مرتبطنان برابطة اجتماعية اقتصادية وعلمية وطيدة.

من أعلام تلك المرحلة التي سبقت هجرة آل قدامة الإمام نصر الدين المقدسي ثم الدمشقي الفقيه الشافعي الرحالة الذي تقدمت ترجمته.

حيث كان يعيش في دمشق على غلة له في نابلس، فالترابط وطيد بين البلدين منذ القدم.

أما الهجرات التي تمت فيما بعد وأقصد - آل قدامة وبعض المقادسة - كان من أسبابها:

- ١ - الغزو الصليبي ومضايقاتهم وتهديداتهم المستمرة لهم.
- ٢ - ترك الفلاحين لأراضيهم طلباً للعلم الشرعي عند الشيخ أحمد بن قدامة، وكان يحرضهم ضد الغزو الفرنجي.

٣ - وشاية أحد المتآمرين لدى الفرنج من ازدياد نفوذ وتأثير الشيخ لدى الفلاحين.

وما أن علم الصليبيون بالأمر، أمروا بقتل الشيخ أحمد، مما دفع الشيخ إلى الهجرة لمدينة دمشق، وذلك لسببين: وجود نور الدين زنكي في دمشق ومحاولاته في توحيد المدن للاستقرار والأمن السياسي لمواجهة خطر الفرنج، والسبب الآخر لاختياره دمشق للهجرة إليها، وجود آل الحنبلي فيها.

قبل المضي في معرفة أحوال هجرته وكيف تمت، لا بد من الحديث عن جواز الهجرة، بمعنى آخر هل تصح هجرتهم وترك أراضيهم؟

يجيبنا على هذا السؤال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه /فقه السيرة/ حيث يقول عن معنى الهجرة في الإسلام، "إن الله عز وجل جعل قداسة الدين والعقيدة فوق كل شيء، فلا قيمة للأرض والموطن والمال والجاه إذا كانت العقيدة وشعائر الدين مهددة بالحرب أو الزوال، ولذا فرض الله على عباده أن يضحوا بكل ذلك، إذا اقتضى الأمر في سبيل العقيدة والإسلام".

هاجر الشيخ مخفياً ومعه ثلاثة من أسرته: ابن أخيه محمد بن أبي بكر، وزوج أخته عبد الواحد بن علي بن سرور - والد الحافظ عبد الغني المقدسي، والثالث ابن أخته عبد الواحد بن أحمد - والد الضياء.

نزلوا جميعاً إلى دمشق عند آل الحنبلي في باب شرقي، في مسجد أبي صالح حيث يقيم آل الحنبلي في أوقاف لهم بجوار المسجد.

عاد الجميع إلى جماعيل وبقي الشيخ أحمد وقد أرسل لأهله رسالة يأمرهم بالخروج والهجرة إلى دمشق مشبهاً هذه الهجرة بهجرة ابراهيم عليه السلام، بقوله: **(... فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).**

وعندما هموا بالخروج لاقوا المصاعب ومنعهم أهل القرية وأعلموا الفرنج بهم، الذين نصبوا كميناً لهم.

ما لبثت أن تمت هجرتهم بلطف من الله عز وجل وحفظه، حيث مكثوا ثمانية أيام في الطريق، يمشون ليلاً ويقومون نهاراً، وكان عددهم في الفوج الأول خمسة وثلاثين فرداً من آل قدامة.

وقام أحد الأفراد عند دخوله سور دمشق مسرعاً نحو الشيخ يبشره بوصول أهله، وتصف الروايات كيف أن أحد أفراد أهل دمشق أرسل لهم نجياً ليركبوا عليه، هذه إشارة لموقف أهل دمشق من المقداسة، حيث استقبلوهم بالترحيب.

ثم ما لبثت أن بدأت أفواج من المقداسة تصل مدينة دمشق حاضرة العلم والثقافة في كل زمان.

السيرة الذاتية للشيخ أحمد بن قدامة:

شكل آل قدامة الجماعليون النواة التي أسست صالحية دمشق، لتغدو حاضرة العلم والثقافة لعدة قرون.

عرفنا لماذا هاجروا، ولماذا اختاروا مدينة دمشق، والآن نتعرف على من هؤلاء آل قدامة. آل قدامة أسرة من قرية جَمَاعِيْل (بالفتح، وتشديد الميم، وألف، وعين مهملة مكسورة، وياء ساكنة، ولام): وهي قرية في جبل نابلس من أرض فلسطين، وهي قريبة من بيت المقدس، بينهما مسيرة يوم واحد. - ياقوت الحموي / معجم البلدان - .
ولد الشيخ أحمد في عام ٥٩١ هـ / ١٠٦٨ م.

كان جده قدامة يتردد إلى القدس لينهل العلم، وكذلك ابنه محمد وحفيده أحمد أبو العباس مؤسس الصالحية، وينتهي نسب جدهم قدامة بن مقدم إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

إذاً عرفت الأسرة بالأسرة العلمية جد عن أب وأحفاد، فالشيخ أحمد بن قدامة هو والد الإمام أبو عمر مؤسس المدرسة العمرية في الصالحية، ووالد الشيخ موفق بن قدامة صاحب كتاب المغني المشهور. وابنته الصالحة رقية زوجة الإمام عبد الواحد بن أحمد الذي لازم خاله الشيخ أحمد وتعلم منه الكثير - وهذه المرأة الصالحة ذات هيبة ومكانة بين قومها هي والدة الشيخ الضياء المقدسي - مؤسس المدرسة الضيائية للحديث الشريف.

عودة للشيخ أحمد بن قدامة، تقول المصادر أن الشيخ سمع صحيح مسلم من الإمام المحدث الشهير نزيل مكة رزين العبدي الذي توفي عام ٥٣٥ هـ في مكة.

وحدث عن الشيخ أحمد ابنه أبو عمر والموفق في دمشق عندما نزلوا في جامع أبي صالح في باب شرقي وأبو صالح الحنبلي هو مفلح بن عبد الله أبو صالح المتعبد، حيث كان من كبار الصوفية في القرن الرابع الهجري وإليه ينسب المسجد المشهور بظاهر باب شرقي.

نزل آل قدامة في هذا المسجد ومكثوا فيه قرابة ثلاث سنوات (٥٥١ - ٥٥٤ هـ) قبل انتقالهم إلى سفح قاسيون.

أما عن أسباب انتقالهم إلى الجبل فهي:

عرفنا أن سبب نزولهم في هذا المسجد بالقرب من آل الحنبلي الموجودين منذ زمن فيه، لاعتناقهم المذهب الحنبلي، وسوف تظهر معالم النبوغ العلمي لدى الشيخ أحمد، إذ أخذ الناس يأتون للشيخ أحمد يسألونه ويستفتونه، مما أثار حفيظة آل الحنبلي فطلبوا منهم أن يكتبوا لهم ورقة تشير بأن ليس لهم مطمع في أوقافهم، كتب لهم الشيخ، وعندما عادوا لمضايقتهم ووصل الأمر لنور الدين زنكي - عن طريق أبي عصرون، أخذ الأوقاف من آل الحنبلي وجعلها تحت إمرة الشيخ أحمد بن قدامة.

بعد مدة تألم وحزن الشيخ أحمد لذلك وقال جملته الشهيرة: "هل هاجرت لأنفس الناس على دنياهم ما بقيت لأسكن ههنا". مردداً حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه).

أما السبب الثاني: الوباء والموت. تذكر المصادر أنه مات منهم ثمانية وعشرون نفساً، دُفن منهم ستة في مقابر مسجد أبي صالح، والباقي في سفح قاسيون، وقد أصيبوا بوباء بسبب تلوث البيئة، ويقول ابن طولون قد تكون إقامتهم في منطقة سهلية غير ملائمة لهم لتعودهم على الجبل، فقد أتوا من قرى جبلية.

تعرف الشيخ أحمد على سفح قاسيون وارتاح للمكان على الرغم أنه كان مقفراً موحشاً، حيث قال: "ما هذا إلا موضع مبارك" ثم شرع في بناء الدير، ويقول ابن طولون نقلاً عن الإمام أبي عمر: "بنينا الدير في سنتين، أول سنة بنينا ثلاثة أبيات والسنة الثانية أتمناه يعني تمام عشرة أبيات وانتقلنا إليه".

وفي الروايات الأولى لانتقال المقادسة يظهر لنا، أن هناك موضعان لهم: المسجد العتيق والدير وعرف فيما بعد بدير الحنابلة، لا يقصد بالدير هنا بدير الرهبان، وإنما الدير من الدور وهي امكنة للسكن، وفي بعض البلدان يسمونها (الديرة).

وهكذا وضعت النواة الأولى لانطلاقة الحياة في الجبل، والذي سيمسى بالصالحية مدينة المقداسة أو آل قدامة، لتتوالى الأبنية من بيوت ومراكز حضارية، ولقد جاء عن الضياء المقدسي في وصف حياتهم في هذا الدير على صعيد تناول الطعام إذ يقول: "يجتمع أهل الدير في بيت الشيخ أبي عمر وتطبخ زوجته الطعام ويأكل الرجال جميعاً والنساء، وعندما يأتي شيء لهم يفرق على الجميع".

وهكذا ببركة هذا الشيخ الجليل أحمد بن قدامة أصبح لجبل قاسيون فيما بعد من الأهمية بمكان، حيث تؤكد المصادر أن اختياره للجبل لم يكن لقداسة فيه أو أي أهمية دينية، فقط لموقعه الجغرافي، وكان يمر منه فرع من نهر بردى نهر يزيد، وتؤكد المصادر أن هذا الجبل عُرف فيما بعد بالصالحية - أي بعد سكن آل قدامة والمقداسة ومن الآثار الموجودة في هذا الجبل قبل مقدمهم هي على التوالي:

- مغارة الدم.

- محاريب الأربعين وخلواتهم في رأس الجبل.

- مسجد الكهف والغار الذي فيه وقبور الشهداء فيه.

- مغارة الجوع.

- وهذه الآثار تعد من التراث الشعبي لعدم توثيقها.

أما إذا تساءلنا عن سبب تسمية الجبل بسفح قاسيون، فنقول كما عرفه ياقوت الحموي ٦٢٦ هـ بقوله:

قاسيون الذي يمثل الحد الشمالي لمدينة دمشق فيقول: "قاسيون: بالفتح وسين مهملة والياء تحتها نقطتان مضمومة وآخره نون وهو الجبل المشرف على مدينة دمشق، وفيه عدة مغاور وفيها آثار للأنبياء وكهوف، وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح، وهو جبل مقدس يروى فيه آثار، وللصالحين فيه آثار...".

وقال ابن طولون نقلاً عن ابن الجوزي: "قاسيون جبل شمالي دمشق ترتاح النفس إلى المقام به، ومن سكنه لا يطيب له سكن غيره غالباً، واختلفوا لأي معنى سمي بذلك فقيل لأنه قسا على

الكفار، فلم يقدرُوا أن يأخذوا منه الأصنام، وقيل لأنه قسا فلم تنبت فيه الأشجار على رأسه غالباً".

والغالب أن جبل قاسيون عبارة عن: (قاسي + ون) وهو جبل قاسٍ ليس فيه نبع أو عين ماء.

نستنتج بعد هذه الملاحظة أن هذه السفوح شهدت وصول الإنسان إليها، ولكن ليس للسكن الدائم، وإنما أماكن للتعبد، ومنها بعض الأديرة القديمة التي كانت مكاناً لاعتكاف الرهبان، ويؤكدُ الضياء المقدسي حفيد الشيخ أحمد بن قدامة عن وجود أديرة للمساكين والمقعدين ومنها الدير الشرقي وكان الشيخ أبو عمر ولد الشيخ أحمد يزورهم للتفقد.

ودير البياتمة: فيه المساكين، والذي كان يتفقدهم خاله الشيخ أبو عمر. وربما يكون الدير الذي بناه الشيخ أحمد بن قدامة، سبب تسميته بالدير لوجوده بالقرب من هذه الأديرة القديمة، وتؤكد المصادر أن هذا الدير هو موقع الجامع الذي سيعرف بجامع الحنابلة.

وتؤكد المصادر أن النواة الأولى لضاحية الصالحية، هم المهاجرون الذين قدموا من قرية جماعيل من أعمال نابلس، ولذلك سميت بالصالحية نسبة إليهم، وعرفوا بالمقادسة نسبةً لبيت المقدس وذلك للمقارنة، فنابلس وأعمالها تتبع بيت المقدس.

وعودة للشيخ أحمد بن قدامة - رحمه الله - الذي قام هو وأبناءؤه ببناء الدير أو المدرسة بأيديهم فهم لا يملكون مالاً ليستأجروا عمالاً، فكان البناء بسيط جداً، فلا خبرة لديهم في البناء، هدفهم إعمار تلك المنطقة وإحيائها، فالشيخ - رحمه الله - يستظل بقوله تعالى: **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)**. وهكذا تربي أبناءؤه وأحفاده، بقوله تعالى: **(... لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ...)** فقد عُرف عنهم بالصلاح والعفاف والورع، أخذ نفر من الناس لمساعدتهم عندما تلمسوا منهم النفحات الإيمانية الصادقة، وذلك بفضل عزيمة وإرادة الشيخ أحمد الصادقة التي رافقته منذ تركه للديار والممتلكات، ومن خلال سيرته المباركة، نجد لسان حالنا يردد حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: **(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)**. لقد أكرم الله عز وجل هذا الشيخ الجليل، بجمعه الأعمال الثلاث التي تجزيه خيراً بعد رحيله رحمه الله.

نرجو من الله عز وجل أن يرزقنا أحد هذه الأعمال الثلاث: ولد صالح أو علم ينتفع به أو صدقة جارية. ونحمد الله عز وجل على يسره معنا ولطفه، إذ جعل حربي (أو) وليس (و). اللهم اجعلنا خير خلف لخير سلف اللهم آمين.

رحمك الله يا شيخ أحمد بن قدامة، تركت من أجل الله عز وجل، عوضك الله خيراً وخيراً. ورحمك الله يا شيخ علي الطنطاوي وجزاك الله خيراً، بقولك البليغ: فكيف نسيهم أهل دمشق!!؟

وفاته:

توفي الشيخ أحمد بن قدامة في عام ٥٥٨ هـ، ودفن في سفح قاسيون، بجنازة مهيبة خرج فيها أهل دمشق لوداعه والدعاء له، وليشهدوا الله عز وجل، أنه قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة، في خلافته على الأرض.

وترك خلفه أبناء علماء أفذاذ في العلم والدين، لا بل وأحفاد يحملون في قلوبهم أسرار المحبة الإلهية والمحمدية، بالعلم والتطبيق، والعمل بكتاب الله وسنة نبيه، والسير نحو الحق بجناحي كتاب الله والسنة الشريفة.

وبدأت مسيرة الأولاد والأحفاد وغيرهم، تترجم لنا وتسطر من بعده أجمل وأبهى سير، فكانوا خير خلف لخير سلف صالح رضي الله عنهم وجزاهم خيراً.

وهكذا بدأت الصالحة تشهد حياة ملؤها العلم، وأخذت أحاديث السمر فيها طابعاً علمياً، واصطبغت الأسر في الصالحة بالعلم، ظهر ذلك عند المرأة والطفل، وبمناهج تعليمية تعد من أرقى المناهج والتي تعادل مناهج ونظام جامعات في وقتنا الحالي.

وإذا ما حاولنا للبحث عن ترجمة لأبناء وأحفاد الشيخ أحمد بن قدامة، سنجد جواباً لسؤال الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله التعجبي فكيف نسيهم أهل دمشق؟ ونحن هنا على هذه الصفحات التي نرجو فيها من الله عز وجل أن يقبل منا عملنا، وينفعنا بما علمنا.

وسوف نقوم بترجمة لأفراد هذه العائلة الكريمة، وعلى رأسهم الإمام أبي عمر صاحب المدرسة العمرية رحمه الله وجزاه خيراً.

ولندعو الله عز وجل أن يجعلنا خير خلف لخير سلف اللهم آمين.
الفاحة لأرواحهم الطاهرة.